

تفسير قوله: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبِطَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يُومٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُتِلْعَمُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَيُنصِّحُوا وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْهَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرِضُوا لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ } . أعود بالله من الشيطان الرجيم. يقول الله جل وعلا : { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبِطَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } . لما أمر الله جل وعلا ونهى في هذه الآية الكريمة، وبين عظامم آياته وبرهان عبادته وربوبيته أنه الرب وحده والمعبود وحده، وبين أنه أنزل إلي هذه الخلائق كتابا فصله على علم هدى ورحمة؛ بين هنا أن الناس الذين أنزل عليهم هذا الكتاب لهم شبه بعنصرهم الأول وهو الأرض، وشبه الوحي الذي أنزله على نبينا صلى الله عليه وسلم بالمطر . فالوحي كثيرا ما يشبه بالمطر كما أوضحناه في سورة البقرة بالكلام على قوله: { أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُبُرٌ } الآيات؛ فكما أن المطر يحيي الله به الأرض بعد موتها، ونبئت به النباتات والزرع والثمار، وينعش به الحيوانات، ويغير به لبني آدم مصالحم الدنيوية؛ فكذلك القرآن هو مطر أرض القلوب. إذا نزل مطر القرآن على أرض القلوب أثمرت القلوب ثمراتها الرائعة البانعة من الإيمان بالله والتقوى والخشية والإبابة والإيثار، وطاعة الله جل وعلا والخوف منه والانقياد لأوامره والتباعد لنواهيها. فالقرآن مطر القلوب، والأرض كأنها المطر الذي يثمر فيه القرآن، كما أن الأرض هي مطر السحاب التي يثمر فيها. فصرّب الله المثل هنا لقلوب بني آدم؛ بأن بينهم شبهها وبين الأرض، لأنها أصلهم وعنصرهم الذي خلقوا منه. فإذا نزل المطر من السماء وأصاب أرضا طيبة أثر فيها أثرا شديدا؛ فأنبتت الزروع والحبوب والثمار والعشب والكلأ الكثير، وصارت ترفل في حلل زينتها من أنواع النباتات. وإذا نزل المطر على أرض سيخة خبيثة لا تقبل النبات؛ كلما ازداد نزول المطر عليها ازدادت خبثا لا تمسك ماء عذبا يشرب منه، ولا تنبت مرعى يرتع فيه، ولا ثمارا ولا زروعا تؤكل. فهذا مثل صبره الله لقلب المؤمن وقلب الكافر. وضرب المثل للقرآن بأنه مطر القلوب المثمر فيها، كما أن مطر السحاب هو مطر الأرض المثمر فيها. قال: { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ } أصل البلد الطيب من الأرض إذا صادفه المطر الكثير يخرج نباته بإذن ربه أحسن ما يكون، يخرج نباته نباتا حسنا فيه الزروع والثمار والأعشاب والكلأ، وكل ما ينتفع به الناس في أمور معاشهم. هذا هو { الْبَلَدُ الطَّيِّبُ } كذلك القلب الطيب إذا نزلت عليه أمطار القرآن زواجره ونواهيها ومواعظ وحلاله وحرامه؛ أثمر ذلك القرآن في ذلك القلب ثمرات أحسن من ثمرات الأرض الطيبة إذا نزل عليها المطر؛ فأثمر الإيمان بالله والتطهر من أدناس المعاصي والكفر، وامتنال أمر الله واجتناب نواهيها. وكل خصلة حسنة يظهرها مطر القرآن في قلب المؤمن كالخشية من الله، والتوبة عند الزلات، والإبابة إليه والسجاء والشجاعة، والرضا بقضاء الله والإيثار وعدم الشح، إلخ غير ذلك من خصال الإسلام الكريمة الجميلة . { وَالَّذِي حَبِطَ } : أي والبلد الذي خبث كالبلد الذي يكون سبخا خبثا لا يخرج نباته ولو تالت عليه الأمطار. { إِلَّا تَكْدًا } إلا في حال كونه { تَكْدًا } عسير الخروج، لا خير فيه ولا منفعة فيه البتة، يخرج بعسر غاية العسر، ويخرج مسلوبا من الخير والنفع؛ وأصل النكد في لغة العرب العسير. لا يخرج إلا في حال كونه { تَكْدًا } ؛ أي عسير الخروج مسلوب الفائدة، لا ينتفع به في أكل الناس ولا أكل الأنعام؛ إذ لا فائدة فيه؛ فكذلك قلب الكافر لا يثمر إلا نكدا عسيرا ثمرة لا فائدة فيها كالأرض السبخة إذا كثرت عليها الأمطار لا تثمر شيئا فيه فائدة . وهذا المثل بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى الأشعري المتفق عليه بيانا واضحا وفيه: { إن مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيث كثير أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، كان منها أجاب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا؛ وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء؛ فذلك مثل من فقه في الدين ونفقه الله بما بعثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به } . والنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح الذي اتفق عليه مسلم البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، بين أن قلوب البشر بالنسبة إلى أمطار القرآن ثلاثة أنواع. قلب كالأرض الطيبة إذا نزلت عليه أمطار القرآن أنبت العشب والكلأ الكثير؛ معناه أنه يثمر فيه القرآن ومواعظه فيجمع بين العلم به والعمل؛ فيتعلم معانيه ويفهم حكمه ويعمل بها ويعلمها غيره . وفي حديث البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: { خيركم من تعلم القرآن وعلمه } وفي رواية في صحيح البخاري { إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه } ؛ فهذه هي الطائفة الأولى من الطوائف الثلاثة الذي شبهها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه بالأرض الطيبة القابلة للماء المنبثة للكلأ والعشب الكثير. فكذلك القلوب الطيبة تثمر فيها موعظ القرآن الثمرات الكثيرة الطيبة؛ فترى صاحبها خائفا من الله، طامعا في فضل الله، طمعا له، ممتلا بجميع الأوامر متباعدة عن معاصي الله، ممتلا بجميع الأوامر متباعدة عن انتهاك شيء من النواهي، فهذه الطائفة الأولى. الطائفة الثانية ضرب لها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه مثلا بأنها كأنها أجاب ليس فيها مرعى، ولكن فيها منافع تمسك الماء فيسيل الماء وبحسب فيها، فتكون مجتمعة فيها مياه كثيرة. ثم هذه المياه ينفع الله بها خلقه؛ منهم من يأتي فيشرب، ومنهم من يسقي مواشيه من هذا الماء، ومنهم من يسلمه على زروعه وبساتينه فينتفع بهذا الماء. وهذه الطائفة هي التي حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم الذي جاء به من القرآن والحديث الصحيح، ولم يكن عندهم من قوة الفهم ما يتفهمون في معانيه، ويطلعون على أسرارته وحكمه. فهم كهذا المستنقع الذي أمسك هذا الماء حتى انتفع به آخرون؛ فهم يحفظون ذلك العلم فيروبه عنهم فطاحل علماء يقفون على أسرارته، ويفهمون معانيه، ويستنبطون منه. فكذلك هذا الماء الذي أمسكته هذه الأجاب لن ينبت هو في نفسه، ولكن الله نفع به الناس؛ حيث شربوا منه وسقوا مواشيتهم وزرعهم؛ كذلك هؤلاء يحفظون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله عليه وسلم ما أنزل الله عليه، ولم تكن أفهامهم بالغة أفهام فطاحل العلماء. إلا أن العلماء يروونه عنهم رواية صحيحة ثابتة عنه صلى الله عليه وسلم؛ فيتفهمون في معانيه، ويقفون على أسرارته، ويستنبطون منه، ويبينونه للناس؛ هذه الطائفة الثانية، { ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه } ؛ فترى بعض الأئمة العظام بروي حديثا صحيحا. وبعض رواه ليس من أهل العلم، وليس من أهل الاستنباط والخوض في معاني الكتاب والسنة؛ فيحفظ عنه ذلك الفحل من فحول الأئمة ذلك الحديث مثلا فيستنبط منه الأحكام، ويبين فيه الأسرار المشتملة عليه. أما الطائفة الثالثة هي التي ضرب لها مثلا بالأرض السبخة التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، وهذه مصروبة لقلوب الكفار والمنافقين كلما تابعت عليهم الموعظ، وسمعوا آيات القرآن تلى، وأسمعوا موعظه وزواجره كان يمر على قلوبهم بغير أن يستفيدوا شيئا؛ كما أن تلك الأرض السبخة كلما تابعت عليها المطر لم تزد إلا خبثا لم تمسك ماء عذبا يشرب منه، ولم تنبت للناس كلاً ولا عشباً. فقلوب هؤلاء لم تحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم علما يروى عنهم حتى ينتفع به غيرهم، ولم ينتفعوا بأنفسهم مما سمعوا من صلى الله عليه وسلم؛ فهم كالسبخ التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً؛ وهذا مثل عظيم صبره الله. وجرت العادة أن الكتب السماوية تكثر فيها ضروب الأمتال؛ لأن المثل يصير المعقول كالمحسوس. ولذا قال الله: { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } وبين أن الأمتال لا يفهمها عن الله إلا أهل العلم؛ حيث قال في العنكبوت: { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } وبين جل وعلا أنه لا يستحبي أن يضرب مثلا ما كانا ما كان، وأن الأمتال التي يضرب يهدي الله بها قوما أراد هداهم، وتكون سببا لزالل آخرين أراد الله إصلاهم. فهي من فتنه الله التي يصل بها من يشاء ويهدي من يشاء، وذلك في قوله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } ثم قال: { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } هذه أمثال القرآن يهدي الله بها من يريد هداها، وما يضل بها إلا الفاسقين. ولما سيمع الكفار سمعوا الله يضرب المثل بالكلب في قوله: { فَصَلِّ كَمَا صَلَّيْتَ الْكَلْبَ إِذْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُّهُ يَلْهَثُ } ويضرب المثل بالحمار في قوله: { كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحَمَّلُ لِنَارِهِ } ويضرب المثل بالذباب: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ قَسَمْتُمْوهَا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا } . وسمعه يضرب المثل بهذه الأشياء قالوا: الله أعظم وأكبر وأزهر من أن يذكر الحمارة والكلب والذباب والعنكبوت؛ فهذا الكلام الذي فيه هذه التحقير ليس من كلام الله لأن الله أعظم من هذا. فبين الله أنه يضرب الأمثال، وبين العلوم العظيمة الجليلة في ضرب الأمثال في أمور حقيرة؛ ولذا قال: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ } ؛ فترى الذباب من أحقر الأشياء، ولكن المثل المضروب فيه من أعظم العلوم -يبين للناس أن المعبودات من دون الله بالغة من التفاهة وعدم الفائدة ما يجعلها لا تقدر على خلق الذباب، ولو تسلط الذباب عليها فانتزع منها شيئا ما قدرت على أن تنتصف منه. وهذا من التحقير والتصغير للمعبود من دون الله يقتضي علما عظيما له قدره ومكانته وهو أفراد الله بالعبادة، وإدراك أن ما سواه لا يغني شيئا. وكذلك ضربه المثل بالعنكبوت؛ لأنه بين أن بيت العنكبوت الذي تنسج من خيوط ريقها لا يغني شيئا عن أحد؛ فكذلك المعبودات من دون الله فالشيء في نفسه حقير، والعلم المبين على ضرب المثل فيه علم عظيم كريم له مكانته وقدره؛ ولذا قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا } . وبهذه الآيات وهذه الأمثال التي ذكرنا يجب على المسلم أن يخاف من سخط الله، وألا يكون قلبه كالأرض السبخة التي لا تنتفع بمواعظ القرآن ولا بزواجره. ويسأل الله أن يجعل أرض قلبه طيبة قابلة لمواعظ القرآن وزواجره وأوامره ونواهيها. فإن من كانت أرض قلبه طيبة انتفع بمواعظ هذا القرآن ونفعته وأوامره فامتثلها، وزواجره فاجتنبها وأمثاله فاعتبر بها، وقصصه فاعتبر بها؛ فعليتنا جميعا أن نسأل الله ألا يجعل قلوبنا كالأرض السبخة التي لا تنتفع بما ينزل عليها من أمطار الوحي، وأن يجعل أرض قلوبنا كالأرض الطيبة القابلة للإيثار وإنبات العشب والكلأ الكثير، وإلتفكر في آيات الله جل وعلا؛ لثمر الخير كله من الإيمان بالله وطاعته وامتثال أمره واجتناب نهيها، وهذا معنى قوله: { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبِطَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا } .